كأنه صوت الدهشة « نلتقي بعد عشرين سنة ! » وضحك ، مصدرا ذلك الضجيج الصغير ، والودود : « اثنان من طيرة حيفا ، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع ! أليس ذلك معجزة يا عبد العاطي ؟ »

— ٥ —

الحياة ، وايقاعها الرتيب الذي له صوت التقوض ، خطوات العبث تضرب في تيه مجنون الى ابدي وابدك وآباد الاخرين . الصمت الذي له مذاق البئر المهجورة . العتم الذي له صوت النواح . هذه الجسور التي لم توجد قط ، لم تبن قط ، لم تكن قط ، بيني وبين العالم . انني أنمو على الحائط الخارجي لهذا الكون ، أنمو مثل طحلب مقرف يشمئز من نفسه ويبحث دائما عن الزاوية وعن الظل . الصمت والعتم ، الصخب والضوء ، اي بديل لاي شيء ؟ الخسارة عدوي ، وكذلك الفجيعة ، وحين افتقد الضوء يضحي الصوت عبئا . حين اغطس في الصمت الابدي تصبح العينان هما ، ونحن انما نتمدد تحت مطرقة العالم ، بايقاعها الذي له صوت التقوض . الا يمكن ان يكون التاريخ كله حلم طفل احمق يعبث بالعاب اكثر تعدادا من ان تستطيع طاقته استيعابها ؟ يا للخاسرين حين يؤلبون على انفسهم الكون بحثا عن سلوى ! حين يعلقون اقدارهم على مخالب قدر لا يعرفون عنه شيئا كي يصير بوسعهم ان يتحملوا انفسهم ! يا لك يا عبد العاطي ، الحي والميت ، يا لكما من هذا العالم المجنون الذي لا يصدق ! ترى كيف ركبت ايها الولي عبد العاطي زورق الناس التعساء وعلمتهم ان العالم انما يصنع من وراء ظهورهم ؟ وان عليهم انتظار اقدارهم مثلما ينتظر صف من المصابين بالبرص شفاءهم امام عيادة طبيب لم يوجد قط ؟ وها انتذا تعود على جذع شجرة مثلما تنبت الاسطورة في وهم المهزومين ، تعطي تحت جبة التقوى للمرأة حظ ان تنتهك زوجها . وللدجال وراء دخان المعجزة حظ ان يتقدم متلصصا الى صف الامام في طابور المنسيين !.. وقد خلعت عنك قداستك ، سلبتك اسمك واعطيته لرجل حي ينبض بالبؤس الذي لا تستطيع انت شفاءه ، وهو لم ينبت على جذع شجرة ، ولكنه نبع مثلما يتفجر الصبح ، مثلما يسقط الشهب مطفأ من المجهول ليصير شيئا ، وهاءنذا جعلت عبد العاطي الولي عبد العاطي الرجل ، اراه يمشي ، واحس اصابعه على كتفي ، واشمه كائنا يقف الى جواري . اعدتك انسانا رغما عنك ، خلعتك عن وهمي مثلما يخلع الطفل ضرسه ، تخلصت منك ، هزمتك ، جعلتك قبضة من عتم الليل قذفت بها الى وهج نار ضروس .. كسرتك من تحت قبضتي عصا كنت اتوكأ عليها ، وصرفت عمري آملا منها ان تعطيني ما لا يعطى ، ولست اريدك بعد : لا درعا ولا زورقا ولا وعدا . اخلعك عن شجرتك ، عن عمرك ، عن معجزاتك كما يسترد العاري قميصه المعلق على خطاف يتدلى من السماء ... واقول لك ، لم يعد يوجد في جدار اوهامي مكان لمسمار جديد ، اعلق عليه وعدا بالاصوات التي لم اسمعها قط ، وقد خلقت لنفسي اذنين اسمع بهما العالم ، اما أنت فلست الا حبة فقع ، سقطت بالصدفة في مستنقع الناس المهزومين ، ورأوا فيها جزيرة طافية من وعود ليس بالوسع تلمسها باليد ، ولا سماعها بالاذن ، ولا رؤيتها بالعين والاصابع ...

وانا ؟ لولا ابو قيس لما كان بوسعي ان اراك يا عبد العاطي . واذا كان العمى فخ الاخاديع فكذلك البصر ، ولقد تحسستك بالاصابع التي لا تخطىء ، في تلك اللحظة الفريدة التي ترتطم فيها اشياء الواقع باشياء الوهم وانني لاصفح عنك ، واغفر لك ، فماذا بوسعي ان افعل اكثر من ان اراك تغيب في الفضاء وتذوب مثلما يذوي حلم ؟ وهما كنت ووهما ولدت ووهما انتهيت ، وها انا استرد قدري واحس ملمسه الثقيل على كتفي ، مثلما كانت امي — بلا ريب — تحس جسدي معلقا على كتفها وهي تمضي بي ، انا ، قدرها الصغير والوحيد ، لتضعني بين ايدي اوهام العالم كله ، ولا تحصد الا